تصدير

بقلم

أ. د. طه جابر العلواني

ليس من السهل على المرء أن يقدم كتابًا لابنته وتلميذته، لكنّ أخي الدكتور جمال البرزنجي –نائب رئيس المعهد– كلفني بكتابة هذا التصدير فلم أجد للاعتذار سبيلاً، فأرجو الله تعالى العون والسداد.

عرفتُ زينب الطالبة "طُلَعةً" منذ طفولتها، تتطلع بشغف عجيب إلى سائر أنواع المعرفة، وتحاول الإلمام بكل ما تستطيع منها بالقدر الذي يسمح لها به سنّها وطاقاتها. وحين آنستُ ذلك منها، بدأتُ أنمّي قدراتها بتثقيفها، وبتكليفها ببعض المهام البحثية المساعدة، فأظهَرَت قدرة فائقة على الاستيعاب والنقد والتحليل. وقد كان بإمكان زينب دراسة أيّ تخصص تريد –حيث كانت من أوائل الثانوية العامة– إلا أنّها اختارت أن تتخصص في الدراسات الإسلاميّة والشرعيّة، فجَمَعَت بين الدراسة التقليدية على أيدي علماء أفاضل منهم الدكتور عماد الدين خليل، وهو مفكر وأستاذ تاريخ وحضارة إسلاميّة، والعالم الجليل الشيخ الدكتور مصطفى البنجوينيّ، وهو عالم جمع بين الدراسة التقليدية في المساجد والدراسة الأكاديمية المعاصرة في جامعة الأزهر، فنهَلَت من علم هذين الأستاذين الجليلين وفكرهما ما استطاعت. ثمّ واصَلَت دراساتها في

مرحلتي الماجستير والدكتوراه -في الولايات المتحدة وماليزيا- في المجال نفسه، واشتغَلَت -في الولايات المتحدة الأمريكيّة- بالدعوة، والبحث العلمي، وبالتدريس في حلقات العلم، وكذا التدريس في الجامعات الأمريكيّة.

لقد تعمدتُ أن أبدأ بنبذة تعريفية عن المؤلفة، ليعرف مَن سيقرأ جهدها في هذه الدراسة أنّه جهد قد ابتدأ واختمر وتكامل عبر رحلة طويلة، وخبرة متنوعة تشهد للكاتبة بأهليّتها، وتشهد للعمل بأنّه عمل يستحق الدراسة والتقدير.

طوال الثمانية عشر عامًا التي قضيتُها رئيسًا للمجلس الفقهي في أمريكا الشماليّة، كانت قضايا الزوجية، ومسائل ووقائع النكاح والطلاق من أخطر المسائل التي عُرضَت لنا. وكانت -وما تزال- تشكّل تحديًا للوجود الإسلاميّ فيها. وكثير من تلك المسائل والوقائع حين تعالج في إطار فقهنا الموروث تعود على الوجود الإسلاميّ بأخطر النتائج، وقد تشكّل تهديدًا للوجود الإسلاميّ كلّه. وليدرك القارئ حقيقة ذلك أود أن أعرض شيئًا جرى النقاش فيه قبل ما يقرب من عشرين عامًا في نيويورك، في مؤتمر عن "وحدة الأديان" عقد بمباركة الأمانة العامّة للأمم المتحدة. شاركتُ في هذا المؤتمر ممثلاً للمسلمين في أمريكا، وكان هناك ممثلون عمّا يزيد على أربعين دينًا من الأديان الموجودة فيها. وأثير نقاش في أهم ما يمكن أن يقدّمه كل دين من الأديان الموجودة على الساحة الأمريكيّة للمجتمع الأمريكيّ، ممّا يساعده على تدعيم قيمه ووحدته وفضائله.

فتحتُ نافذة على الفوائد التي يمكن للمجتمع الأمريكيّ أن يجنيها من الإسلام، فإذا بعدد كبير من أساتذة الأديان من النصارى واليهود ينبرون للحديث عن أنّ "نظام الأسرة في الإسلام" ما يزال صالحًا لأن ينقذ الأسرة الأمريكيّة من الضياع، فلو أنّ المجتمع المسلم قدّم نفسه للمجتمع الأمريكيّ من خلال "نظام الأسرة" لاقتنع الشعب الأمريكيّ بأنّ الوجود الإسلاميّ ضروريٌّ لهذه البلاد، وأنّ المجتمع الأمريكيّ سيكون هو المستفيد الأول من الوجود الإسلاميّ بين ظهرانيه. ثنّيتُ على ذلك وأكدتُه، وشعرتُ أنّ القوم لا يرغبون في التطرق إلى سواه.

كانت الأسرة المسلمة نموذجًا يمثّل الأفضل من بين سائر النماذج قبل أن تصاب بما أصيبت به من أمراض بدأت في الداخل وفي العمق الإسلاميّ، ومنها انتشرت وشاعت بين الأقليّات المسلمة في الخارج.

إنّ أهم ما يعجب أولئك الذين ينظرون إلى الإسلام والمسلمين نظرة إيجابيّة هو تضامن الأسرة المسلمة وتكافلها وقوة بنائها وتنظيم كل شيء فيها، بدءاً بالتفكير في تأسيسها وبنائها حتى الموت المفرق بين الزوجين، الذي لا تنتهي الأمور به، بل يتناول التنظيم ما بعد الموت من عِدَد ونفقات ومواريث وما إليها. أمّا أصحاب النظرة السلبية للإسلام، فهم يرون أنّ "الأسرة المسلمة"، آخر معاقل "الأمّة الإسلاميّة" وأنّ اختراقها وتفكيكها كفيلان بالقضاء على كل أمل في إعادة بناء الأمّة المسلمة، ولذلك فقد اشتدت محاولات النيل من هذا النظام الإلهيّ المعجز، ومحاولات تدميره.

إنّ الدعاة المسلمين وأئمة المساجد والمراكز الإسلاميّة، والمتصدين للفتوى في الولايات المتحدة وأوروبا لم يدركوا بالقدر الكافي العلاقة الوثيقة بين نجاح الدعوة وتقديم المجتمع المسلم نموذجًا لبقيّة عناصر المجتمع الأمريكيّ - الأوروبيّ، ولم يقدّموا دراسات وضوابط للمسلمين تبيّن الفرق بين "المسلم الفتنة" الذي جعل من نفسه "فتنة للقوم الظالمين" والمسلم النموذج والقدوة الذي يعرف أنّ أيّ مخالفة يقع فيها أو عمل أو شيء يرتكبه، لن يقتصر ضرره وآثاره السلبيّة عليه وحده بل سوف يتعداه ويتجاوزه إلى المسلمين كافة، وخاصة أولئك الذين يقطنون تلك البلاد. فالمسلم أو المسلمة في الغرب مطالبان بأن يسأل كل منهما نفسه عندما يهم بعمل: "ما أثر ذلك في سمعة المسلمين والإسلام"؟ فقد يخيّل إلى بعضهم أنّ تقديمهم لمصالحهم الخاصّة لا ضرر منه ما لم يرتكبوا إثمًا أو يفرطوا في واجب إسلامي فرديّ، لكنّ الحكيم لا يخفى عليه أنّ الضرر الذي يصيب سمعة المسلمين يعم الجميع. وقد أثبتت الأحداث في أمريكا وأوروبا وغيرهما أنّ الخطأ الفرديّ يضر بسمعة المجموع، والأمثلة

على ذلك لا تحصى. وقد نبهنا القرآن المجيد لضرورة اتقاء الفتن التي لا يقتصر ضررها على الظالمين منّا، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: 25].

إنّ موضوعي الأسرة المسلمة ونظامها الإسلامي لم يعودا جاذبين كما كانا للإنسان الغربيّ بعد ما رأى أنّ كثيراً من المسلمين يمارسون من أنواع السلوك في حياتهم الأسرية ما يمارسه أيّ إنسان آخر، وبهذا سقطت من أيدي الدعاة وسيلة "نموذجية الأسرة المسلمة" التي كانت تُعدّ من أكثر الوسائل فاعليّة وتأثيرًا في الدعوة إلى الله تعالى. إنّ فقهنا الموروث قد صاغت الكثيرَ من أحكامه الأعرافُ والتقاليد في البلدان التي عاش فيها الفقهاء المولّدون لذلك الفقه والكاتبون له.

وقد تعرضت الأسرة المسلمة في الغرب لمشكلات الأسرة المسلمة في العالم الإسلاميّ وزيادة. فإلى الغرب صدّر بعض العلماء أو الفقهاء في الشرق كثيرًا من المشكلات، منها إضافة إلى "المتعة" ونكاح المتعة، فكرة "النكاح المؤقت" وإباحته للرجال، فأباح أولئك الفقهاء هذا النوع منه للطلاب والتجار والساسة المسلمين وغيرهم، ثمّ ابتدعوا "النكاح بنيةَّ الطلاق" و"نكاح المسيار" وما سمّاه بعضهم: زواج الصداقة "زوج فريند". فالأسرة المسلمة وإن كانت ما تزال تتمتّع بكثير من عناصر القوة والمتانة والمنعة التي منحها إيّاها القرآن المجيد، إلا أنّها هبطت نتيجة انحراف نظامها عن سبيل القرآن ومناهجه إلى مستوى تعذّر فيه أن تقدِّم نموذجًا ومثالاً للأسرة الآمنة المستقرة، التي تسود عناصرَها المودةُ والرحمة والتكافل والتضامن، وتشكّل وحدة صغرى متينة يقوم عليها مجتمع متماسك متين بحيث يتسنّى للبشريّة أن تتخذ منها أسوة وقدوة ومثالاً. والفقه الموروث بما شابه من شوائب الأعراف والعادات والتقاليد لم يعد قادرًا -بوضعه الحاليّ- على إعادة بناء "نظام الأسرة"، لذا كان لزاماً العودة إلى القرآن المجيد -المصدر المنشئ- بروح ووعي مقاصديّ، وذلك ما حاولت المؤلفة تقديمه في هذه الدراسة وتأكيده.

إنّ الأمر ما يزال قابلاً للمعالجة إن شاء الله، فلو اجتمعت كلمة المنظمات والمؤسّسات الإسلاميّة في أمريكا وكبار الأئمة والدعاة، وأعادوا بناء "نظام الأسرة" بناءً قرآنيًّا يستهدف تحقيق مقاصد القرآن في بناء الأسرة من السكن والمودة والرحمة والنسب والصهر مع ربط مناحي فقه الأسرة كلها بتلك المقاصد القرآنيّة، إضافة إلى ربطها بالقيم القرآنيّة ومقاصد القرآن الحاكمة من "التوحيد والتزكية والعمران"، لأمكن -بعد جهود غير قليلة- إعادة بناء ذلك النظام الإلهيّ الفريد، وبذلك يقدّم المجتمع المسلم في أمريكا إلى الشعب الأمريكيّ ما يجعله مدركًا أهميّة، بل ضرورة وجود المسلمين فيه.

إنّ هذه الدراسة تصلح -بإذن الله- أن تكون ورقة عمل مهمة لسلسلة من الجهود المتصلة في إطار خطة خمسيّة، هدفها إعادة بناء "نظام الأسرة في القرآن" وتقديمه نموذجًا للأمّة الأمريكيّة، وإعادة بناء جسور الحب والمودة والاحترام بين المجتمع المسلم وبقيّة شرائح المجتمع الأمريكيّ. وفقنا الله والمؤلفة لمزيد من العطاء، وجعل هذا الجهد المبارك في ميزان حسناتها. ووفق المعهد العالمي للفكر الإسلامي لتبني المزيد من البحوث والدراسات الجادة. والله ولي التوفيق.

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

للأسرة دور رسالي، ومهمة حضارية تاريخية ودور استخلافي، في مختلف المجتمعات الإنسانية على تعدد نحلها واختلاف أديانها ومللها. وثمة مجتمعات إنسانية يتعايش فيها أفراد وجماعات، تختلف فيما بينها في العرق والدين، والأعراف والعادات الاجتماعية، والطبائع والسلوكات الإنسانية.

وممّا لا شك فيه أنّ هذا التعدد والتنوع يفرض على تلك الجماعات أشكالاً وصوراً متعددة من التحديات المختلفة. ومن أبرز هذه الجماعات اليوم، الجاليات المسلمة التي انتشرت -ولا تزال- في مختلف أصقاع الأرض، وخاصة في دول أوروبا والولايات المتحدة الأميركيّة.

ويؤدي الاختلاف والتباين الذي تواجهه تلك الجاليات في الدين والأعراف الاجتماعية، دوراً بارزاً في تصعيد التحديات والصعوبات التي تعانيها تلك الجاليات، وخاصة فيما يتعلق بمجال الأسرة، التي تُعدّ اللبنة الأولى والأساس في تنشئة أجيال الجالية المسلمة هناك.

وقد برزت إشكاليات خطيرة واجهت الجالية المسلمة، تحدت نموذجها المعرفي في كل جوانبه، فقد اختلط المسلمون هناك بالنماذج المعرفية والخلفيات التاريخية والاجتماعية، ما أدى إلى تعقُّد بنية الجاليات المسلمة، فطُرِحَ على العلماء هناك عشرات التساؤلات لمواجهة التحديات.

ومن المعلوم أنّ القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان اللذان يشكلان بنية مؤسسة الأسرة المسلمة، بغض النظر عن طبيعة البيئة التي

تعيش فيها، أو تعدد مشاربها. وقد وضعت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية مقاصد لبناء الأسرة، والحفاظ عليها وحمايتها من الأخطار التي يمكن أن تعصف بها. فرسالة الإسلام رسالة عالمية صالحة للتطبيق في كل زمان وبيئة، لا تطالها عوارض النقص أو الخلل، فهي شريعة خالدة أنزلها الله سبحانه على نبيه الكريم ﷺ، وختم بها الشرائع والرسالات.

ومن هنا، فإنّ الكشف عن مقاصد الشريعة في مؤسسة الأسرة أمر ضروري وملحّ، تزداد الحاجة إليه في ظل التحديات الهائلة، التي تعيشها المجتمعات المسلمة قاطبة، والجاليات والأقليات المسلمة بخاصة.

وتُعدّ هذه الدراسة من أوائل المحاولات التي تحاول الكشف عن المقاصد الأسرية وكيفية تفعيلها، من خلال تقديم نماذج تطبيقية عملية، تهمّ الجاليات المسلمة، التي تعيش في بيئات غربية، تزخر بالتحديات الداخلية والخارجية، على مختلف الأصعدة.

وتقدّم الدراسة ضوابط لتفعيل المقاصد الأسرية، وضمان تحقيقها، عن طريق الرجوع إلى كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وتدبرهما مع دراسة الواقع المعاش الذي تواجهه الأسرة الأمريكيّة المسلمة، المهاجرة منها والمقيمة خاصة، فيما يتعلق بأحكام الزواج والطلاق، وما يلحق بهما من قضايا تتصل بمقاصد التشريع في القضايا الأسرية. والفكر المقاصدي يساعد في التنظير الكلي لتلك القضايا المتشعبة في البيئات المختلفة، وبخاصة البيئة الأمريكيّة. وكذلك المدى الذي تستطيع الجالية المسلمة في الولايات المتحدة الأمريكيّة أن تبلغه في تفعيل المقاصد الأسرية في معالجة المشاكل التي تواجهها، في ظل التحديات المتراكمة والظرفية التاريخية التي تحياها، وأثر تفعيل هذه المقاصد في ما يخصّ معالجة قضايا الأسرة التي تواجهها الجالية هناك، فضلاً عن الضوابط التي ينبغي للمجتهدين والفقهاء المعاصرين الوقوف عليها؛ بغية ضبط عملية التفعيل المقاصدي في البيئة الأمريكيّة، لضمان الالتزام بشرع الله.

وكل ذلك في إطار يؤكّد الكليات وتنظيم الجزئيات، من خلال مراعاة مآلات الأفعال، وتكامل مناهج التنظير مع التنزيل، وتوسيع فضاء الفقه وأدواته، وتكامله مع العلوم الأخرى لتفعيل مقاصد التشريع.

وقد اقتصر البحث هنا في ما يخصّ بعض قضايا الزواج والطلاق في الأسرة المسلمة على الولايات المتحدة الأمريكيّة كنموذج، غير غافل عن الإشارة إلى أهم الظواهر الاجتماعية والمشكلات التي تواجهها الأسرة المسلمة الأمريكيّة اليوم.

وتسعى هذه الدراسة إلى تقديم إضافات نوعية، تُعدّ الأولى من نوعها -حسب علمي المتواضع- في مجال تفعيل المقاصد في قضايا الأسرة، وتتمثل هذه الإضافات في معالجة مشروع تفعيل المقاصد الأسرية، عن طريق تقديم نماذج تطبيقية تتعلق بقضايا الأسرة المسلمة في الولايات المتحدة الأمريكيّة، وضبط التفعيل المقاصدي لأحكام التشريع في مجال الأسرة خاصة، وذلك بتقديم ضوابط لتفعيل المقاصد الأسرية في البيئات المختلفة.

وتقوم الدراسة على توظيف المنهج الاستقرائي التحليلي في جمع المادة العلمية، ومن ثمّ القيام بالتحليل والاستنباط. وليس من الضرورة هنا الترجيح بين الآراء الفقهية المختلفة في ثنايا عرض القضايا المختلفة وآراء الفقهاء فيها، فالدراسة في بعض جوانبها دراسة ميدانية، تتتبّع المشاكل الأسرية في المجتمع الأمريكيّ.

لقد حظيت مؤسسة الأسرة في الإسلام باهتمام العديد من العلماء والباحثين والمفكرين قديماً وحديثاً، فالأحكام التنظيمية المتعلقة بالكيان الأسري في الإسلام جاءت مفصّلة تفصيلاً دقيقاً، أكدته سلوكات النبي الكريم ﷺ وأقواله وممارساته، في عشرات الحوادث والوقائع المختلفة، الأمر الذي ظهر في تراكم معرفي هائل تمثل في كمّ هائل من الدراسات والبحوث ذات المناهج والتوجّهات المتعددة.

وتقف هذه الدراسة على العديد من الدراسات القديمة والحديثة التي تناولت قضايا الأسرة ومقاصد التشريع الإسلامي في أحكامها. وتشكّل أمهات كتب الفقه -بجميع مذاهبها ومدارسها- مادة خصبة مهمة لأحكام الأسرة وقوانينها ومقاصدها في الماضي والحاضر. ونظراً لسعة خارطة المراجع الفقهية والأصولية، وخشية الإطالة فيها؛ فقد اقتُصرت الدراسة على مراجعة بعضٍ من تلك المؤلفات المتعلقة بدراسة أنظمة الأسرة وعلاقتها بالمقاصد، التي ظهر الاهتمام بها جليّاً في كتابات بعض علماء القرنين الخامس والسادس الهجريين، كالإمام الراغب الأصفهاني (توفي 502هـ) في كتابيه المتميزين: "الذريعة إلى مكارم الشريعة"[1]، و"تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين"[2].

أمّا كتابه "المفردات في غريب القرآن"[3] فقد تضمّن منهجاً تجديديّاً مَثَّلَت فيه المفرداتُ القرآنية مفاهيمَ عميقة تعكس فلسفة القرآن الكريم ومعانيه، من خلال تتبّعه الواسع للفظة القرآنية في استعمالات القرآن الكريم لها. بالإضافة إلى تتبّعه للمعاني اللغوية على نحو يفتح آفاق اللفظة قرآنيّاً ويوسِّع فضاءاتها، دون أن يجعل قوانين اللغة قيداً عليها. وقد كان لمفردات أنظمة الأسرة نصيباً وافياً في "المفردات"؛ إذ حاول الأصفهاني أن يحدد بعض المعالم المقصدية عن طريق تناوله بعض المفاهيم، كالإحصان والمودة والرحمة والزواج والميراث وغيرها، ممّا يعكس رؤيته في تتبّع أسرار الشريعة.

وقد برزت هذه الرؤية واضحة في كتابيه: "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، و"تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين"؛ إذ ركز فيها على دور الأسرة وأهميتها

---

(1) الأصفهاني، أبو الراغب. **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: أبو اليزيد العجمي، القاهرة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1987م.

(2) الأصفهاني، أبو الراغب. **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، تحقيق: عبد المجيد النجار، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987م.

(3) الأصفهاني، أبو الراغب. **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت.).

في بناء الإنسان المستخلف في الأرض، وحاجته إلى محضن أسسه واضحة المعالم وقوية البناء، كي تؤهله لأداء الأمانة وهي الاستخلاف. ولذلك فقد فصّل -رحمه الله- خصائص الأسرة في القرآن، وربطها بتربية إنسان الخلافة، وبيَّن أنّ التقصير في تكوين تلك المؤسسة التربوية على أسس صحيحة سيؤدي إلى غير مقاصد الخالق. وربط المعاني المعنوية والروحية بالأحكام الشرعية في أنظمة الأسرة.

إلا أنّ هذا المشروع لم يتطور من بعده، إلا فيما ظهر مؤخراً من اهتمام بالمفاهيم القرآنية التي رجع العديد من الباحثين في تأصيلها إلى ما كتبه الأصفهاني.

أمّا الإمام الغزالي (توفي 505هـ) -رحمه الله- فقد عالج في كتابه "إحياء علوم الدين" ما وصلت إليه بعض الكتابات الفقهية من بعض الجمود والركود، الأمر الذي أدى إلى تجريد الأحكام الشرعية أحياناً من روح التشريع.

وعلى هذا قدّم الإمام الغزالي مشروعه التجديدي في البحث عن أسرار التشريعات، وتقصّى بعض معانيها الكامنة، سواء في العبادات أو المعاملات. ومن ذلك ما تناوله في باب آداب النكاح، وكذلك ما جاء في تحديده بعض الضوابط التربوية في تربية الأولاد. فقد بيَّن مقاصد النكاح في تحصيل الولد، واعتبره الأصل، وبيّن أنّه قربة من أربعة أوجه: موافقة محبة الله بالسعي إلى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان، وطلب محبة رسول الله ﷺ في التكثير من مباهاته، وطلب التبرك بدعاء الولد الصالح، وطلب الشفاعة بموت الولد الصغير. وأوضح تحقيق الزواج لمقصد ترويح النفس بالمجالسة والملاعبة، وتفريغ القلب عن تدبير المنزل.

ولم تظهر محاولة الإمام الغزالي بصورة متكاملة في باب الكشف عن مقاصد التشريع في الأسرة؛ إذ جاءت متفرقة موزعة على أبواب، في سياق حديثه عن المعاملات والعلاقات بين الوالدين والولد وصلة الرحم وغيرها.

إلا أنّ أهمية محاولته تكمن في منهجه في البحث عن أسرار التشريعات، ووضعه البذور الأولى في تتبّع مقاصد الشريعة في الأحكام والتشريعات المتعلقة بالأسرة. وعلى هذا فقد تابع الأصوليون الإمامَ الغزالي فيما كتب، واعتبروا تحصيل الولد هو المقصد الأصلي للنكاح.

وتبرز أهمية مساهمات ابن تيمية (توفي 728هـ) -رحمه الله- في مجال تفعيل المقاصد الأسرية، من خلال تناوله عدداً من القضايا الأسرية المتعلقة بالطلاق في مجتمعه وبيئته آنذاك. فقد لاحظ خطورة تعامل الناس مع الطلاق، وتلاعبهم بأحكامه، واستخفاف بعضهم بإطلاق ألفاظ الطلاق. فجاءت فتاواه المشهورة متتبّعة لمقاصد التشريع في الأسرة، وتفعيلاً عمليّاً لها في الواقع، مع مخالفته في الرأي كثيراً من علماء عصره، كما في مسألة منع طلاق الثلاثة في مجلس واحد.

ويُعدّ كتاب "مجموع الفتاوى الكبرى" لابن تيمية[4] مرجعاً يمكن الاستفادة من منهجه في التعامل مع النصوص عند تقديم فتواه بناء على ملاحظة قصد الشارع من تشريع هذا الحكم أو ذاك، خاصة في مسائل الزواج والطلاق والميراث.

أمّا مساهمات الإمام الشاطبي (توفي 790هـ) في مقاصد الشريعة في الأسرة فقد اتضحت في كتابه "الموافقات"، حين وقف عند بعض مقاصد النكاح، وبيَّن أنّه مشروع للتناسل على القصد الأول. وأشار إلى مقصد طلب السكن والازدواج والتعاون على المصالح الدنيوية والأخروية، من الاستمتاع بالحلال، والنظر إلى ما خلق الله من المحاسن في النساء، والتجمل بمال المرأة، أو قيامها عليه وعلى أولاده، والتحفظ من الوقوع في المحظور من شهوة الفرج ونظر العين، والازدياد من الشكر بمزيد النعم من الله على العبد، وما أشبه ذلك. وكانت مساهمته -رحمه الله- في توسيع دائرة المقاصد التبعية، مع إبقائه على المقصد الأصلي في الضروريات، وهو حفظ النسل.

---

(4) ابن تيمية، أحمد عبد الحليم. **مجموع الفتاوى الكبرى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرياض: مطابع الرياض، 1381هـ.

وثمة كتابات حديثة انطبعت بالظروف التاريخية والفكرية والاجتماعية التي كان يعيشها العالم الإسلاميّ منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. فقد واجه العالم الإسلاميّ عنف المستعمر الغربيّ ومحاولاته الغادرة لتحطيم أهم الأسس التكوينية للمجتمع المسلم، وخاصة المرأة.

من هنا ركز مصلحو تلك الفترة على الأسرة بوصفها لبنة مهمة في الإصلاح الاجتماعي. ونلحظ هذا الأمر في كتاب الشيخ الذهبي "التفسير والمفسرون"، الذي تتبّع فيه أطوار التفسير، فسمّى تفسير العصر الحديث بـ"التفسير الاجتماعي". وظهر هذا الاتجاه واضحاً في تفسيرات الشيخ محمد عبده، التي خرّجها تلميذه محمد رشيد رضا فيما عرف بـ"تفسير المنار" أو "تفسير القرآن العظيم"[5]. وكذلك ما كتبه سيد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن" وكتبه الأخرى التي أكد فيها أهمية دور الأسرة في التكافل الاجتماعي والاقتصادي والبعث الحضاري. وكذلك ما جاء في كتاب محمد عبد الله دراز "دستور الأخلاق في القرآن" الذي أصل لمنظومة القيم في التشريعات تأصيلاً علميّاً، أخرجها من دائرة الفضائل إلى الدوائر المنهجية.

ومن الوجهة القانونية، ظهر كتاب مصطفى السباعي "المرأة بين الفقه والقانون"[6]، الذي جاب فيه في مختلف الأحكام الفقهية والقانونية المتعلقة بالمرأة والأسرة، هادفاً الدفاع عن الإسلام والرد على اتهامات أتباع المنظور الغربي، ولم تكن غايته التأصيل.

أمّا الشيخ محمد أبو زهرة فقد كتب في الأحوال الشخصية، وتتبّع قوانين الأسرة جميعها في مختلف المذاهب الفقهية، مقارناً بين المذاهب.

ومن الكتابات المهمة أيضاً، ما كتبه محمد بدر؛ أستاذ فلسفة القانون في جامعة القاهرة، الذي نشر العديد من الكتب والمقالات التي تناول فيها قضايا

(5) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1971م.

(6) السباعي، مصطفى. **المرأة بين الفقه والقانون**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط6، 1984م.

الأسرة المختلفة، مثل: "قانون الزواج"، و"تعدد الزوجات"، وغيرهما. وتمتاز كتاباته بعقد مقارنات واسعة بين الأحكام والقوانين الإسلامية والقوانين الإغريقية والرومانية والفرعونية، وغيرها من التشريعات اليهودية والمسيحية بلغاتها.

ويقع في هذا السياق ما كتبه محمد عزة دروزة في كتابيه: "الدستور القرآني في شؤون الحياة "[7]، و"المرأة في القرآن والسنة"[8]، وفيهما مؤشرات منهجية في التعامل مع القرآن والسنة.

وتلتقي هذه الكتابات في تعاهدها مع ما كتبه علماء الهند منذ زمن أحمد شاه ولي الله الدهلوي مؤلف كتاب "حجة الله البالغة"[9] وغيره من العلماء، الذين ساهموا في محاولات التأصيل لمقاصد الشريعة في أنظمة الأسرة. ومنها محاولات أبي الأعلى المودودي -رحمه الله- معالجة مختلف الإشكاليات الاجتماعية عن طريق تفسيره للقرآن الكريم. فقد خصّ في كتاباته الأسرة في الاسلام، وبيّن حقوق المرأة وواجباتها ودورها الفعال في الأسرة، وتابعه في ذلك الكثير من علماء الهند، ومنهم مَن ترجم القرآن الكريم إلى اللغتين الإنجليزية والأردية، في محاولة تأكيد معاني الإصلاح الاجتماعي، والتنويه بأنّها لن تتم من غير التركيز على الأسرة.

أمّا في المغرب العربي فواصل هذا الاتجاه الطاهر بن عاشور في كتبه: "تفسير التحرير والتنوير"[10]، و"مقاصد الشريعة الإسلامية"[11]، و"أصول النظام

---

(7) دروزة، محمد عزة. **الدستور القرآني في شؤون الحياة**، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1956م.

(8) دروزة، محمد عزة. **المرأة في القرآن والسنة**، بيروت: منشورات المكتبة العصرية، 1980م.

(9) الدهلوي، أحمد شاه ولي الله. **حجة الله البالغة**. تحقيق ومراجعة: سيد سابق، القاهرة: دار الكتب الحديثة، (د.ت.).

(10) ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**، تونس - الجزائر: الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.

(11) ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، عمان: دار النفائس - دار الفجر، 1999م.

الاجتماعي في الإسلام"[12]. وتُعدّ قراءة ابن عاشور لمقاصد أحكام العائلة متميزة في المجال الأصولي والفقهي؛ إذ يتضح في هذه القراءة استيعابه أهم محاور الدراسات السابقة عليه، وهو ما مكّنه من تحليل مفرداتها لتقديم قراءة منهجية متميزة، متجاوزاً بذلك القراءات السابقة، ومتحدياً مَن يأتي بعده في استكمال البنى المنهجية التي فتح مدارات تناولها بأسلوب فعال، قابلة للتطوير والبناء عليه في جميع المحاور، خاصة للباحثين في مناهج التعامل مع المقاصد، أو مناهج التعامل مع الأسرة، لإضافة لبنات منهجية تعلي البناء وتثريه وتطوره، إذا استوعبت تلك المؤشرات، إيجابيّاً. فقد ضمّ الجزئيات المتعددة والمتفرقة ليقولبها بوضوح وتميُّز، من خلال تأطيره مقاصد العائلة، وإخراجها من مجال التقنين الضيق إلى أطر التأصيل المقصدي الواسع.

وقد ركز -رحمه الله- على تحديد المبادئ العامة في أصل تشريعات الأسرة، وهو كما قال: إحكام وضبط العلاقات الإنسانية بحصرها في ثلاث مناطق أساسية؛ آصرة النكاح، وآصرة القرابة، وآصرة الصهر. وكأنّه من خلالها تمكن من تحديد الأولويات المقصدية العليا، التي -بدورها- تستبطن مؤشرات منهجية في أنّ أهم مقاصد أحكام العائلة، توسيع شبكة العلاقات التي تحدد بدورها الحقوق والواجبات المتبادلة بين البشر في تلك العلاقات، التي صدرت كتنظيمات تشريعية، والتي لا نبالغ إذا قلنا إنها تُعدّ من أهم القضايا التي تفتقدها جميع النماذج التشريعية والاجتماعية اليوم سواء الغربية أو الشرقية. وهذا يرجع إلى خصائص الشريعة التي تمتاز بالتكاملية، بحيث لا يطغى بعضها على بعض، بل تتفاعل وتتكامل بانضباط يصعب وجوده في أيّ تنظيمات بشرية أو دينية أخرى[13].

---

(12) ابن عاشور، محمد الطاهر. **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تونس - الجزائر: الشركة التونسية للتوزيع، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م.

(13) ابن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، ص155-183.

ولقد تناول هذه المسألة من قبلُ بعضُ السابقين، لكنّها لم تتبلور بالصورة التي قدّمت في تحليلات ابن عاشور.

وتتابعت الدراسات في قضايا الأسرة، وتعددت مداخلها، لانفتاح العالم الإسلاميّ على الغربيّ، واختلاط المرجعيات عند بعضهم. وقد اختلفت مناهج تناول قضايا الأسرة في الأدبيات المعاصرة، الأمر الذي أدى إلى اختلاف طبيعة تناولها من حقل إلى آخر. فمناهج الدراسات التربوية تختلف عن القانونية أو الدراسات الاجتماعية أو الإنثروبولوجية، أو الخدمة الاجتماعية، أو الصحية، وغيرها.

ومن جهة أخرى، ظهرت موسوعات حديثة تناولت أحكام الأسرة بالتفصيل، متبعة أسلوب الفقهاء الأوائل، إلا أنّها كانت بلغة العصر، من مثل ما كتبه عبد الكريم زيدان في كتاب "المفصل في أحكام المرأة"[14]، وكذلك ظهرت موسوعة "تحرير المرأة في عصر الرسالة" لعبد الحليم أبي شقة[15]، وهي محاولة منهجية أخرى لتأصيل قضايا المرأة والأسرة وتناولها المباشر من مصادرها الرئيسة: القرآن والسنة النبوية الصحيحة، وقد اعتمد فيها على تخريجات الشيخين: البخاري ومسلم.

وبرز في كتابات بعض الباحثين في العلوم الاجتماعية والإنسانية وفي العقدين الأخرين اتجاهٌ يمثل النموذج المعرفيّ الإسلاميّ، إلا أنّ تمثيل موضوع قضايا الأسرة فيه ما يزال في بداياته. ويدعو هذا النموذج إلى بناء مناهج قادرة على مراجعة المسلمات النظرية والمناهج التحليلية السائدة في المدارس الغربية، التي تمثل المنظور العلماني، وتدرس في الجامعات العربية والإسلامية؛ من غير مراجعة أو نقد. يدعو هذا الاتجاه أيضاً إلى دراسة العلوم الشرعية والتشريعية ومراجعتها، للخروج من الدوائر الضيقة للنظريات الاجتماعية الغربية، والسعي إلى تطوير منظور إسلامي قادر على تقديم إطار تحليلي أكثر تفسيراً للظواهر

(14) زيدان، عبد الكريم. **المفصل في أحكام المرأة**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1993م.

(15) أبو شقة، **عبد الحليم. تحرير المرأة في عصر الرسالة: دراسة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحيحا البخاري ومسلم**، الكويت: دار القلم، 1990م.

الاجتماعية ضمن السياق التاريخي والحضاري الإسلاميّ، بل والعالـمّي. وقد ظهرت في هذا المجال محاولات جادة تؤمن بفاعلية دور الأسرة وإسهامها في حل كثير من المشكلات الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع، بل والأمة.

كما ظهرت دراسات أخرى في صورة رسائل جامعية، منها: "المرأة والعمل السياسي: رؤية إسلامية"[16] لهبة رؤوف عزت، تناولت فيها دور الأسرة تناولاً منهجيّاً، قدّمت من خلاله إضافة منهجية مهمة، إلا أنّها ركزت على إبراز دور الأسرة بعامة، وليس الأسرة المسلمة في أمريكا خاصة. من جانب آخر، تعرض أحمد الريسوني لنظرية المقاصد عند الشاطبي، وتناولها إسماعيل الحسني في كتابه "نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور"[17]. وكذلك فعل جمال الدين عطية، خاصة في كتابه "نحو تفعيل مقاصد الشريعة"[18]، الذي حاول فيه أن يبني على ما بدأه ابن عاشور في البنية الكلية في مقاصد العائلة، إلا أنّ أسس البنية لديه كانت غير مكتملة؛ نظراً لتحوّله عنها إلى الجزئيات. وقد دعا في آخر كتابه إلى ضرورة توافر العديد من الأبحاث في هذا المجال.

وقد اهتمت الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا بفقه المقاصد عبر مؤتمراتها، فعقدت الجامعة في صيف عام 2006م مؤتمراً عالميّاً ناقش فيه العلماء والمفكرون موضوع المقاصد من جوانب متعددة. وانعكس هذا الاهتمام على كتابات عدد من أساتذتها وطلبتها أمثال قطب سانو، الذي اهتم في مقالاته وبحوثه العلمية بتناول الجانب التأصيلي للمقاصد، وكذلك فعل محمد طاهر الميساوي حين قام بتحقيق كتاب ابن عاشور: "مقاصد الشريعة". وكتب العديد من طلبة الجامعة

---

(16) عزت، هبة رؤوف. **المرأة والعمل السياسي: رؤية إسلامية**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995م.

(17) الحسني، إسماعيل. **نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995م.

(18) عطية، جمال الدين. **نحو تفعيل مقاصد الشريعة**، عمان – دمشق: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الفكر، 2001م.

في موضوع المقاصد، خاصة المقاصد الأسرية، بما في ذلك التركيز على مقصد حفظ النسل، والتطورات الطبية والتكنولوجية لعلم الجينات وأطفال الأنابيب والأرحام المستأجرة، وإشكالية الاستنساخ والإجهاض وغيرها من التحديات التي تتعرض للعلماء والفقهاء المسلمين الذين لا يألون جهداً في مواجهتها وإيجاد الحلول الناجعة لها.

بالإضافة إلى ذلك، اهتمت بعض المراكز بتطوير الدراسات في المقاصد، ومواصلة البحث والتحليل فيها، حتى تصل إلى كمالها المنهجي والعلمي، من مثل المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي يُعدّ من أوائل المراكز الفكرية التي دعت طلبة الدراسات العليا إلى التركيز على دراسة المقاصد والكتابة فيها، ونشره تلك الأبحاث لتفتح بوابة النقاش بين الباحثين. وكذلك فعل مركز دراسات المقاصد الشرعية في لندن، الذي حرص على أن يضم كوكبة من العلماء المهتمين بدراسة المقاصد بإدارة جاسر عودة، ليثري حقل المقاصد بنقاشات العلماء وتحليلاتهم. وما تزال المراكز العلمية المهتمة بالمناهج والمنهجية في الجامعات وغيرها تثري هذا الحقل بمساهماتها العلمية.

ونظراً لأهمية الموضوع وخطورته، وجدية الباحثين في التعامل معه، وعظم التحديات التي تواجه الأسرة اليوم، خاصة في الغرب؛ فقد أخذت العديد من المجلات العلمية والثقافية -التي تناولت الأسرة المسلمة في العالم الإسلامي أو الغربي- تُسلِّط الضوء على هذا الجانب[19]، فأصبحت تقدّم أفلاماً تعرض قضايا المرأة والأسرة على نحو يؤكد الضياع وفقدان التوازن في هذا المجال، الأمر الذي يتطلب بذل جهود أكبر وأدق في ما يخصّ تحرير المقاصد الأسرية واستنباطها، ثمّ العمل على تفعيلها في مختلف البيئات والمجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية. ومن هنا بدأ التفكير في موضوع هذا الكتاب.

---

(19) يوجد العديد من المجلات -في الولايات المتحدة- التي تتعامل مع قضايا المسلمين، مثل: "مجلة الزواج والأسرة" (the Journal of Marriage and Family) التي ينشرها المجلس الوطني للعلاقات الأسرية. وقد تواصل نشرها مدة 60 عاماً. وتدرس المجلة تاريخ الأسرة وتطورها.

أمّا الدراسات التي ظهرت في الغرب فقد بدأت منذ سنوات بالكتابات التأصيلية التي قام بها إسماعيل الفاروقي في كتابه "التوحيد"[20]، وإسماعيل الفاروقي وزوجته لويس الفاروقي في كتاب "أطلس الحضارة الإسلامية"[21] وكتابات فضل الرحمن، وعلي مزروعي، وأمينة ودود وغيرهم الكثير. ومن جهة أخرى، قدّمت دراسات قانونية امتزجت بالشرعية، أمثال كتابات عزيزة الهبري وغيرها من الباحثين والباحثات في المجال القانوني بجامعتي هارفرد وريتشموند وغيرهما، قدمت رؤى عدّة في قضايا الزواج والطلاق من الناحية القانونية، محاولة الإفادة من ذلك في تقاضي المسلمين في المحاكم الأمريكيّة. إلا أنّ هذه الدراسات ينقصها البُعد التأصيلي الخالي من التحيز، خاصة أنّ الكثير من أصحابها ينتمون إلى حركات نسوية، أو نشأوا في أحضان العلمانية، وهذا قد يشكّل بحد ذاته تحديّاً للمشرعين والفقهاء، ويدفعهم إلى صياغة ضوابط تحمي النصوص من إسقاطات ليست منها.

وقد حاول بعض المفكرين التأصيل والتنظير لما يُسمّى بـ"فقه الأقليات"؛ وهو فقه واسع المساحة، يتناول مختلف أمور الحياة العقائدية والعملية على حد سواء، وهو ما دعا بعض المفكرين إلى تناول هذا الموضوع تأصيلاً وتنظيراً على غرار "الفقه الأكبر". ومن أوائل المنظّرين لهذا الفقه الشيخان يوسف القرضاوي، وطه جابر العلواني، اللذان حاولا إيجاد حلول للتحديات المستشرية التي تواجه الأقليات المسلمة اليوم، وثمة كتاب في الموضوع نفسه لخالد عبد القادر بعنوان "فقه الأقليات المسلمة"[22]. وظهر في الغرب باحثون ومفكرون تناولوا منهجية هذا الفقه، محاولين تفعيلها لمعالجة التحديات العنيفة التي تواجه المسلمين، ومنهم طارق رمضان. ومن أقرب الدراسات إلى هذه الدراسة ما كتبته الأستاذة الفاضلة

(20) Al-Faruqi, Ismail Raji. *Al-Tawhid: Its Implications for Life and Thought*. Herndon, VA: International Institute of Islamic Thought, 2000.

(21) الفاروقي، إسماعيل راجي. ولويس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**. ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، هيرندن، الرياض: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة العبيكان، ط1، 1998م.

(22) عبد القادر، خالد. **فقه الأقليات المسلمة**، بيروت: دار الإيمان، 1998م.

آن صوفيا روالد في كتابها "النساء في الإسلام: تجربة غربية"[23]؛ إذ راجعت فيه مقولات بعض العلماء والأساتذة المسلمين في الآونة الأخيرة، واستطلعت مدى استيعابهم وفهمهم لمفاهيم قرآنية تتعلق بموقع المرأة في الإسلام، كما تناولت أهم الإشكاليات التي أثارها الغرب ضد النموذج الإسلامي، ومنها: الدرجة، والقوامة، والنشوز، وعلاقة الرجل بالمرأة في الزواج والتعدد والطلاق، وحجاب المرأة. ولقد بذلت الباحثة جهداً في استقراء آراء كثير من علماء المسلمين ودعاتهم، سواء في البلاد العربية والإسلامية أو في بلاد الغرب، واختارت عناصر وشخصيات من حركات وتيارات إسلامية متنوعة ومنتشرة في العالم الإسلاميّ والغربيّ، وأجرت معها مقابلات شخصية. ويبيّن عملها هذا مدى سعة التغيير والاختلاف في تفسير معاني المفاهيم والأنظمة القرآنية المختلفة، كالقوامة والنشوز والزواج والطلاق، وعلاقة الرجل بالمرأة على العموم، فضلاً عن عمق تأثير البيئة والأعراف المختلفة في فهم العلماء خاصة، والمجتمع عامة.

وبطبيعة الحال، فإنّ التأثر بالطرح الغربي ومقولاته التي تربط تغيّر وضع الرجل في الأسرة بتغيّر الظروف دعا الباحثة وغيرها إلى طرح تساؤلات عدّة تتعلق بمسائل الزواج والطلاق والقوامة، مثل: هل تسقط قوامة الرجل إذا قيل إنّها "مرتبطة بفكرة الإنفاق ومسؤولياته" في حال شاركت المرأةُ الرجلَ في النفقة بالقدر نفسه؟ فإن قيل إنّها لا تسقط، فما معنى القوامة إذن؟

ولقد تبيَّن من المراجعة خطورة تحويل الأحاديث إلى مجرد أدلة توافق رأي القائل أو تخالفه، وهو ما يؤكد أهمية بذل الجهد بالتعاون العلمي الجاد بين فقهاء العصر ومحدثيهم؛ وصولاً إلى منهج فعال في التعامل مع النصوص، يتطلب من القارئ عدم الإقبال على النص بفرضيات مسبقة لإثبات رأيه أو منهجه، وإنّما يقدّم القارئ للقرآن أو السنة طلباً للهداية في إيجاد الحقيقة.

(23) Roald, Anne Sofie. *Women in Islam: The Western Experience*, London: Routledge, 2001.

ونشرت الباحثتان زينب طه العلواني، وسلمى أبو جديري كتاباً عن الأسرة المسلمة في أمريكا سنة 2003م، ثمّ أعيدت طباعته سنة 2007م، وكذلك نشرت الباحثة العلواني فصلاً بعنوان "النموذج القرآني للأسرة" في كتاب: "التغيير من الداخل: رؤى متعددة حول العنف الأسري"[24]، صدر باللغة الإنجليزية.

ومع كل ما سبق، فإنّ موضوع تفعيل المقاصد الأسرية في الولايات المتحدة الأميركيّة، لم يستقلّ بدراسة تفرد الحديث عنه -حسب علمي المتواضع-، الأمر الذي تطلب عمل هذه الدراسة.

تنقسم هذه الدراسة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة. خصص الفصل الأول للحديث عن "الإطار المفاهيمي للمقاصد". وتعرض الفصل الثاني لـ"تطور العمل بالمقاصد الأسرية". أمّا الفصل الثالث فتناول "منهج تفعيل المقاصد الأسرية في الولايات المتحدة الأميركيّة". في حين تناول الفصل الرابع "ضوابط الكشف عن المقاصد الأسرية وتفعيلها".

(24) Alwani, Zainab. "The Qur'anic Model for Harmony in Family Relations." In *Change from Within: Diverse Perspectives on Domestic Violence in Muslim Communities*, edited by Maha B. Alkhateeb and Salma Elkadi Abugideiri, 33–64. VA: Peaceful Families Project, 2007.

obeikan.com